

محمود محمد طه

الإسلام

الطبعة الثانية جمادى الثاني 1388هـ
الموافق أغسطس 1968

الإهداء إلى الإنسانية

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب خرجت الطبعة الأولى منه في مارس عام 1960 ، وكان الناس يومئذ تحت وطأة (حكم العساكر) ، لا أحوجهم الله إلى ذكره بالخير ، وقشع الله ، عن أمم الأرض التي لا تنزل بأمثاله مرزوءة ، سحابة ظلمته وجهله.

ولقد خرج هذا الكتاب عقيب حادث فصل الطلبة الجمهوريين الثلاثة من المعهد العلمي ، وما صحب ذلك الفصل من تشويه شديد للفكرة الجمهورية. ولقد حاولنا تصحيح ذلك التشويه فلم يتيسر لنا النشر ، ولقد منعنا المحاضرات في الأندية ، وفي دور العلم المختلفة.

خرج هذا الكتاب في طبعته الأولى مركزا ، شديد التركيز ، مضغوطا ، كأشد ما يكون الضغط ، ومع ذلك ، فهو الكتاب (الأم) بالنسبة للحزب الجمهوري.. فيه كل ما نريد أن نقول عن الإسلام ، فلم يبق أمر مستأنف ، إلا أن يكون زيادة شرح ، وزيادة توسيع لما جاء فيه موجزا.

والآن ، وقد نفذت الطبعة الأولى ، منذ زمن بعيد ، فإننا ندفع بالكتاب إلى المطبعة لنخرج الطبعة الثانية ، من غير أن نجري فيها تعديلا. اللهم إلا إدخال العناوين الفرعية عليه ، لتكون للقارئ متوكأ ، يعينه على حسن متابعة معانيه الدقائق ، من غير إملال ، ولا سأم.

والله ، وحده ، المسئول أن يجعل هذا الكتاب بشيرا بعودة الإسلام ، وعمدة لعودته..

إنه سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم
(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)
صدق الله العظيم

مقدمة

تعالوا إلى كلمة سواء

إن الاضطراب الذي نشاهده في عالم اليوم يرجع إلى أسباب كثيرة ، ترجع جميعها إلى سبب أساسي واحد ، هو مدى التخلف بين تقدم العلم التجريبي ، وتخلف الأخلاق البشرية.

إن العلم التجريبي الحديث قد رد مظاهر المادة المختلفة ، التي تزخر بها العوالم جميعها ، إلى أصل واحد ، فإذا لم ترتفع قواعد الأخلاق البشرية إلى هذا المستوى فتزد جميعها إلى أصل واحد ، فإن التواءم بين البيئة الطبيعية ، وبين الحياة البشرية ، سيظل ناقصاً ، وسيبقى الاضطراب الحاضر مهدداً الحياة الإنسانية على هذا الكوكب بالعجز ، والقصور ، في أول الأمر ، ثم بالفناء والذئور ، في آخر الأمر..

العلم المادي التجريبي

أما عن العلم التجريبي فاستمع إلى العالم العربي الكبير الدكتور أحمد زكي يحدثك في كتابه : مع الله في السماء تحت عنوان "لو انفرط هذا الكون" فيقول:-

(ثم نعود إلى الكون ، إن هذه عناصر الأرض ، وهذه مركباتها ، وهي كل شئ فيها ، وقد بناها بانيتها من لبنات ثلاث: إلكترونات فبروتونات فنيوترونات.

وتحدثنا عن الكواكب السيارة ، فقلنا أن عناصرها من عناصر الأرض..

وتحدثنا عن النجوم ، فقلنا أن عناصرها من عناصر الأرض ، تستوي في ذلك نجوم في مجرتنا هذه ، دنيانا ، سكة التبانة ، ونجوم في مجرات نركب إليها الضوء فلا نبلغها إلا بعد مئات الملايين من السنين..

الكون أجمع إذن يتألف من عناصر هي بعض هذه التسعين.

الكون أجمع إذن يتألف من تلك اللبنات الثلاث..

فلو أننا أمرنا الأرض أن ينفرط عقدها : أمرنا أجسام الإنسان أن تنفرط ، وأجسام الحيوان ، وأجسام النبات ، وأجسام الصخر بهذه الأرض ، والصخور بهذه الكواكب ، وأمرنا كل غاز الشمس أن ينفرط ، وأن تنفرط غازات النجوم جميعها ، ما قرب منها وما بعد ، واختصاراً أن ينفرط كل شئ في الوجود ، لنتج عن انفراطه كمات هائلة ثلاث من : إلكترونات- وبروتونات- ونيوترونات ، فهل في معاني الوحدة أبلغ من هذا المعنى؟ ونقول ثلاث لبنات ، وهل هي حقاً ثلاث ؟ وفي الوقت الذي ترد فيه المادة إلى ثلاث لبنات ، يرد العلماء "القوى" إلى أصل واحد: الضوء ، الحرارة ، الأشعة السينية ، الأشعة اللاسلكية ، الأشعة الجيمية ، وكل إشعاع في الدنيا ، كلها صور متعددة لقوة واحدة ، تلك القوة المغناطيسية الكهربائية، إنها جميعاً تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها إلا اختلاف موجة.

المادة ثلاث لبنات ، والقوى موجات متأصلات ..

ويأتي أينشتاين ، وفي نظريته النسبية الخاصة ، يكافئ بين المادة والقوى.. ويقول: أن المادة ، والقوى ، شئ سواء ، وتخرج التجارب تصدق دعواه ، وخرجت تجربة أخيرة صدقت دعواه بأعلى صوت سمعته الدنيا: ذلك انفلاق الذرة في القنبلة اليورانيومية..
المادة والقوى ، إذن ، شئ سواء.

فماذا بقي من أشياء هذا الكون ؟

بقيت الجاذبية ، ذلك الرباط الذي يربط الكون أجمع ، وبقي المكان SPACE ، وبقي الزمان ، ويحاول أينشتاين أن يوحد بينها ، أن يربط بينها ، وهو في نظريته ، نظرية النسبية العامة ، يربط بين الزمان والمكان ، فيجعل منهما شيئاً متواصلاً ، غير متفاصل وفي نظريته الجديدة ، نظرية الحقل الواحد UNITED FIELD THEORY يهدف أينشتاين إلى أن يثبت أن القوى المغناطيسية الكهربائية ، تلك التي تتمثل في الضوء والحرارة وصور الإشعاع عامة ، هي وقوى الجاذبية شئ سواء.

وأقول السواء وما أعني به السوية. ولكني أعني أنهما في الأصول في أعماق الحقيقة الطبيعية ، متواصلان ، قال أينشتاين: (إن روح العالم النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود الواحد شكلان للقوى لا يلتقيان ، شكل للجاذبية القياسية ، وشكل للمغناطيسية الكهربائية).

وهكذا يتحلل المركب ، ويتبسط المعقد ، وتتساكَل الحقائق التي تتستر وراء الظواهر المختلفة ، وتتشابه ، وتجتمع كلها لتصب في مجرى واحد ، تلك الوحدة العظمى التي تجري في الكون أجمع ، ولكن ، هل قضى الإنسان من ذلك وطراً ؟

إن الإنسان ما زال يتساءل : وما وراء كل هذا ؟

إن الإنسان إن كان وجد جواباً لبعض (كيف) تسأل عنه ، فهو ما زال يتساءل (لماذا) وهو يسأل في شئ من الهلع الفكري ، والتقديس الديني ، قال أينشتاين: (إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني ، والإظلام ، إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حي كميته ، إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبته ، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره ، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة ، أحكم ما تكون ، ونحس أن وراءه شيئاً هو الجمال ، أجمل ما يكون ، وهي حكمة ، وهو جمال ، لا نستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة ، إلا في صور لهما بدائية أولية ، وهذا الإدراك للحكمة ، وهذا الإحساس بالجمال ، في روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلاق). ويقول أينشتاين ، وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره ، وأحقهم بالكفر ، إن كان علم يدعو إلى كفر ، وأولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق ، من إغفالهم ذكر الله ، يقول أينشتاين: (إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمي ، وأنبى حافز) وهو يقول: (إن ديني هو إعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة ، مهيمنة ، تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام ، إن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله !!) انتهى حديث الدكتور العالم أحمد زكي.

الفيزيقيا وسيلة إلى الميتافيزيقيا

فأنتم ترون ، من هذا الحديث ، كيف رد العلم التجريبي الظواهر المختلفة إلى أصل واحد ، وكيف حمل هذا العلم أكبر علمائنا المعاصرين - أينشتاين - ليقول هذه الكلمة الخالدة ، التي أوردناها في آخر ما اقتبسناه من كتاب الدكتور أحمد زكي ، فكأن العلم التجريبي لا يريد أن يكتفي بأن يظهر لنا وحدة العالم المحسوس ، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيرينا كيف أن العالم المحسوس ، إذا أحسن استقصاؤه ، يسوقنا إلى عتبة عالم وراءه ، غير محسوس ، ويتركنا هناك وقوفاً ، في خشوع ، وإجلال ، نلتمس وسائل ، غير وسائل

العلم التجريبي المادي ، بها نهتدي في مجاهيل الوادي المقدس ، الذي يقع وراء عالم المادة. أقرأوا ، مرة ثانية ، الكلمة الخالدة التي حمل العلم التجريبي المادي الحديث أكبر علمائنا المعاصرين على قولها!! وأقرأوا ، بشكل خاص ، قوله فيها (وهو إيماني العاطفي ، العميق ، بوجود قدرة عاقلة ، مهيمنة ، تتراءى حيثما نظرنا ، في هذا الكون المعجز للأفهام)!!

إن العالم المادي إنما هو بمثابة الظلال للعالم الروحي ، أو قل بتعبير أدق ، أن المادة روح ، في حالة من الاهتزاز تتأثر بها حواسنا ، وأن الروح مادة ، في حالة من الاهتزاز لا تتأثر بها حواسنا ، فالاختلاف ، على ذلك ، بين عالم المادة ، وعالم الروح هو اختلاف مقدار وليس اختلاف نوع ، وهذا يفتح الباب على الوحدة.. وحدة جميع العوالم.

وحين ينتهي بنا العلم التجريبي المادي إلى رد جميع ظواهر الكون المادي إلى وحدة هي (الطاقة) ، يبرز لنا من جديد ، وبصورة خلاصة ، العلم التجريبي الروحي ، ليتولى قيادنا في شعاب الوادي المقدس ، الذي يقع وراء المادة ، ونستطيع ، بمواصلة البحث والاستقصاء ، في العلم التجريبي الروحي ، أن نرى هل يمكن أن ترد ظواهر الأخلاق البشرية إلى أصل واحد ، كما ردت ظواهر الكون المادي إلى أصل واحد ، ويتم بذلك الاتساق ، والتلاؤم ، بين سلوك البشر ، وبين البيئة المادية التي يعيشون فيها ، فينتهي بذلك القلق الحاضر ، ويعم الأرض السلام؟؟

الدين والعلم توأمان

والعلم التجريبي الروحي ليس جديدا ، وإنما هو قديم قدم العلم المادي ، وبحق ، إنهما توأمان ، ولدا في وقت واحد ، ودرجا معا ، وظلا يتعاونان في مدارج النمو ، فإن الإنسان الأول عندما وقف على رجليه ، لأول مرة ، أمام قوى الكون المادي الهائلة امتلأ قلبه بالخوف ، والتقديس ، فأما القوى التي أخافته هونا ما ، واستطاع مناجزتها فقد هدته إلى العلم التجريبي المادي ، وأما القوى التي استرهبته ، واستغرقت خشيته ، فقد ترلف إليها ، وتملقها ، وهدته بذلك إلى العلم التجريبي الروحي. ونحن نسمي هذين التوأمين اليوم ، العلم ، والدين ، وقد قفز العلم قفزة واسعة جدا في العصر الحديث ، وتخلف الدين ، وبذلك حدث الاختلال في التوازن ، وظهر الاضطراب ، والقلق الذي أشرنا إليه ، في صدر هذه الكلمة ، وليس إلى إعادة التوازن من سبيل ، إلا إذا قفز الدين هذه القفزة الجريئة نفسها ، فرد قواعد الأخلاق البشرية إلى أصلها الأصيل ، على نفس النحو ، وبنفس القدر ، الذي به ردت مظاهر الكون المادي إلى أصلها الأصيل..

الفهم الذري للدين يجعله يناسب عصر الذرة

.. نعم فالعلم التجريبي الروحي - الدين - ليس جديدا ولكنه سيعود جديدا ، لأن عصر الذرة يتطلب فهما ذريا للدين - أعني فهماً دقيقاً ، يصل إلى نواة الدين ، ويفجر تلك النواة تفجيراً يسمع له دوي أعنى من دوي تفجير النواة المادية ، ولقد سابر الدين طفولة البشرية في سحيق الأماد ، وأحسن مسابرتها ، وكان بها رفيقا ، شقيقا ، يمد لها في الأوهام ، والأباطيل ، التي كانت تكتنف تفكيرها ، ريثما ينقلها ، على مكث ، وفي أناة ، من وهم غليظ ، إلى وهم أدق ، ومن باطل غليظ إلى باطل أدق ، وهكذا ، دواليك ، حتى قطعت الإنسانية عهد الطفولة ، ووقفت اليوم ، في طور المراهقة ، تستشرف إلى عهد الرجولة ، والاكتمال. وأصبح على الدين دور جديد ، هو أن يقفز بالإنسانية عبر هذا الطور القلق الحائر المضطرب - طور المراهقة - ليدخل بها عهد الرجولة ، والاكتمال. ولما كان الفرق بين الطفل والرجل كبيرا شاسعا ، فالرجل يتحمل مسؤولية عمله ، بينما الطفل يطلب الحماية من تلك المسؤولية ، فقد أصبح على الدين ، منذ اليوم ، ألا يبنني على الغموض ، وألا يفرض الإذعان ، على نحو ما كان يفعل في عهود طفولة العقل البشري.. وإنما يجب عليه أن يقدم منهاجا متكاملا للحياة ، يخاطب العقل ، ويحترمه ، ويحاول إقناعه بجدوى ممارسة ذلك المنهاج في الحياة اليومية ، في كل مضطربها .

الإرادة البشرية مادة الدين

والعلم التجريبي الروحي - الدين - مادته الطاقة ، أيضا ، ولكنها في هذه الحالة (الإرادة) البشرية.. هل هي (مخيرة) أم (مسيرة) كالطاقة المادية؟؟ ونحن ألقنا ، عند التحدث عن الدين ، أن نتحدث عن أديان التوحيد ، والوثنيات التعدديات ، والحقيقة أن البشر ، في جميع عصورهم ، لم يعبدوا غير هذه الإرادة البشرية ، وهذا يفسر لنا السر في أن جميع الأوثان كانت تتحت على شكل الهيكل البشري.. وحتى اليوم ، وفي أرقى الأديان التوحيدية ، وأعني به الإسلام ، فإن أرقى معتنقيه يعبدون من دون الله إلها آخر ، هو (إرادتهم البشرية) ولكنهم لا يظنون إلى ذلك ، ويظنون أنهم يحسنون صنعا.. ويسخرون من باقي عباد الله من أصحاب الملل الأخرى. فلو أنهم تقطنوا إلى حقيقة أمرهم إذن لاشتغلوا ، عن الزراية على الآخرين ، بتحصيل ما فاتهم ، هم..

إن العالم الطبيعي الكبير ، أينشتين ، يقف عاجزا ، حائرا ، على عتبة معضلة الجبر ، والاختيار ، ويقول ، فيما يحدثنا الدكتور أحمد زكي: (إن ديني هو إعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة ، القليلة ، التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة ، العاجزة ، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة ، مهيمنة ، تتراءى حيثما نظرنا ، في هذا الكون المعجز للأفهام ، إن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله) ونحن ، بعلمنا التجريبي الروحي ، نبدأ من حيث انتهى هذا العالم الجليل بعلمه التجريبي المادي ، ومع أنه واضح أن أينشتين قد قرر الجبر ، وذلك بقوله: (وهو إيماني العاطفي ، العميق ، بوجود قدرة عاقلة ، مهيمنة ، تتراءى حيثما نظرنا ، في هذا الكون المعجز للأفهام) ، إلا أنه واضح أيضا أنه يتساءل تساؤلا صامتا: ما هي هذه القدرة العاقلة المهيمنة؟؟ وما مدى هيمنتها؟؟ ونعتقد أن الإجابة على هذين السؤالين هي الإجابة على مسألة الجبر والاختيار ، وبها ترد مظاهر الأخلاق البشرية إلى أصل واحد ، كما ردت من قبل مظاهر الكون المادي إلى أصل واحد .

قلنا أن العلم التجريبي المادي ، والعلم التجريبي الروحي توأمان ، ولدا في يوم واحد ودرجا في مراقي الحياة معا ، على تواد حيننا وعلى تدابر حيننا ، ولكن على تعاون في جميع الأحيان. ومادة العلم التجريبي المادي الكون المادي ، وإن كانت الإرادة البشرية تتدخل فيه ، ووسيلته المعادلات الرياضية ، ومعدات التجارب في المعامل ، ومادة العلم التجريبي الروحي الكون المادي ، والإرادة البشرية معا ، ووسيلته القرآن ، ومعدات العبادة ، في الخلوات ، والجلوات. وأنتم ترون ، من هنا ، أن الدين الذي أعنيه في صدر حديثي هو الإسلام. وأحب أن أعترف أنني بدأت عن تصديق ، لأنني ولدت من أبوين مسلمين ، ولكن التصديق لم يبلغ بي درجة التعصب والعمى ، فإلتوي بنتائج تجربتي وإنما استطعت ، بتوفيق الله ، أن أسير مفتوح العينين ، إلى النتائج التي رسخت تصديقي البدائي ، وانتقلت بي إلى اليقين .

وسائل العلم التجريبي الروحي

ولا بد من كلمة قصيرة عن وسائل التجربة الدينية ، وأولها وأولاها ، القرآن ، ونحن نسمع الناس يقولون أن القرآن كلام الله ، فما معنى هذا؟؟ إن الله ليس كأحدنا ، وليس كلامه ككلامنا ، بأصوات تنسل من الحناجر ، فتقرع الأذان.. إن كلام الله خلق.. فالشمس تطلع ، فترسل الضوء ، والحرارة ، فتبخر الحرارة الماء ، وتثير الرياح ، وتحرك الهواء ، وتحمل الرياح بخار الماء ، في سحب كثيفة ، إلى بلد بعيد ، فينزل المطر ، فيروي الأرض ، ويحييها بعد موتها ، فينبت الزرع ، وتنب الحياة ، بمختلف صورها ، وشكلها.. هذه صورة موجزة ، قاصرة ، مفككة الحلقات ، لكلام الله . فالقرآن صورة هذا الكلام ، أو قل هذا العلم ، مفرغ في قوالب التعبير العربية.. ويظن كثير من كبار العلماء أن القرآن هو اللغة العربية ، وذلك خطأ شنيع.. وهو خطأ جعلهم يلتمسون معاني القرآن في اللغة العربية ، فأنحجوا بالكلمات ، وهم يظنون أنهم على شيء.. واللغة أساسا ، نشأت بدوافع الحاجة اليومية ، في الحياة الجسدية ، فهي ، مهما تطورت ، فإنها تعجز ، كل

العجز ، عن تحمل معنى كلام الله. وهي ، على خير حالاتها ، لا تقوم منه إلا مقام الرمز ، والإشارة.. والقرآن لا يدع لنا مجالا للشك طويلا ، فهو يقول (الم* ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين) والإشارة هنا (بذلك) إلى (الم).

ثم تجئ الوسيلة الثانية ، وهي تحقيق (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتحقيقها يبدأ بالثقة بمحمد ، وبتصديقه التام ، وبتقليده المتقن ، في أسلوب عبادته ، وفيما تيسر من أسلوب عاداته ، ويشمل تقليده كل ما صح عنه ، بعد بعثه ، وقبله ، أثناء تحنثه في غار حراء ، ولست أريد أن أطيل هنا ، فإن الإيجاز في ذلك يكفي ، على الأقل في هذه العجالة ، وقد أعود في وقت آخر ، ومجال آخر ، للإفاضة في القول..

قلت أن مادة العلم التجريبي الروحي الكون المادي ، والإرادة البشرية.. والحق أن عناية العلم الروحي بالكون المادي ، في جميع صورته ، هي في مرتبة الوسيلة ، في حين أن عنايته بالإرادة البشرية في مرتبة الغاية ، ولذلك يقول القرآن ، (سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد؟) وفي العلم الديني إن الإرادة البشرية هي صورة مصغرة للكون المادي ، المنظور منه ، وغير المنظور. فنحن كلما كونا لأفكارنا صورة صحيحة عن الكون المادي ، كلما انبعثت ، بمقابل هذه الصورة الكونية ، صورة تضارعها ، في الصحة والدقة ، عن حقيقة إرادتنا ، أو قل شخصيتنا الفردية ، ولذلك فإن القرآن يقول (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) بنفس الصيغة التي يقول لنا بها (وأقم الصلاة)..

ما هي الإرادة البشرية ؟

ويمكن القول إذن بأن موضوع العلم التجريبي الروحي هو الإرادة البشرية.. فما هي هذه الإرادة البشرية؟؟ سنرجئ الإجابة على هذا السؤال إلى وقت قريب ، ونعالج في إيجاز الإجابة على تساؤل العالم الكبير أينشتاين ، - ما هي هذه القدرة العاقلة المهيمنة ، وما مدى هيمنتها؟ فأما السؤال الأول فإن القرآن يخبرنا بأنها ذات الله (أولم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتقيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله ، وهم داخرون؟؟)

وأما السؤال الثاني فإن القرآن يجيبنا عليه (إني توكلت على الله ، ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على سراط مستقيم) وهكذا فإن هيمنته تعالى على الوجود هيمنة تامة ، لا يخرج عنها صغير ، ولا كبير ، من الخلائق ، في دقيق ، ولا جليل ، من حركاته ، وسكونه..

إرادة الحياة دون إرادة الحرية

ولكن الله تعالى سير الجمادات ، والغازات ، والسوائل ، تسييرا قاهرا ومباشرا ، ثم خلق الحياة في مراتب النبات ، والحيوان ، فسيرها (بإرادة الحياة) ، وهي إرادة تعمل بدوافع البقاء للاحتفاظ بالحياة.. وقانونها اجتلاب اللذة ، ودفع الألم ، وأصبح تسيير الله تعالى للمخلوقات في هذا المستوى من وراء حجاب (إرادة الحياة) التي تتمتع بما يسمى الحركة التلقائية ، لأن دوافع حركتها ، وقوى حركتها كالمودعة فيها.. ثم لما ارتقى الله تعالى بالحياة إلى مرتبة الإنسان زاد عنصر جديد على (إرادة الحياة) ، هذا العنصر هو (إرادة الحرية) ، وهو عنصر يختلف عن إرادة الحياة اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع. ثم سير الله تعالى البشر بإرادة الحياة ، وإرادة الحرية معا ، وأصبح بذلك تسييره إيانا غير مباشر ، وتدخله في أمرنا ، هو من اللطف والدقة ، بحيث تورطنا في الوهم الأكبر ، وذلك باعتقادنا أننا نملك إرادة حرة ، مستقلة بالترك أو العمل.. وإليك آية هي آية في الدلالة على لطف تدخل إرادة الله في توجيه إرادتنا: (إذ يريكم الله في منامكم قليلا ، ولو أراكم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور * وإذ يريكموهم ، إذ النقيتم ، في أعينكم قليلا ، ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع

الأمر) فانظروا إلى هذا اللطف اللطيف من جانب الإرادة الإلهية القديمة ، إذ تتدخل في تسيير الإرادة البشرية المحدث!!

الإرادة البشرية هي إرادة الحرية

فالنبي يرى أعداءه في منامه قليلين ، فيصمم على مقاتلتهم ، ولو رآهم غير ذلك ما قاتلهم ، ثم ، عند اللقاء ، يرى فريق المؤمنين فريق المشركين قليلا ، فيصمموا على قتالهم ، ويرى فريق المشركين فريق المؤمنين قليلا ، فيصمموا ، بدورهم ، على قتالهم ، والله هو الذي يري النبي أعداءه ، في منامه ، قليلا ، والله هو الذي يري كل فريق من الفريقين أعداءه قليلا ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا. كل ذلك من غير أن تنزعج الإرادة البشرية ، ومن غير أن تشعر بتدخل خارجي في أمر من أمورها ، فالإرادة البشرية هي (إرادة الحرية) هذه ، وبها تميز الإنسان عن الحيوان ، وهي الإرادة التي بممارستها عصى آدم ربه ، إذ نهاه عن أكل الشجرة ، فقال الله تعالى فيه (فأكلها منها ، فبدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى) وقال تعالى عنه محذرا رسوله من استعمال هذه الإرادة الخادعة ، إستعمالا مخدوعا كما اتفق لأبيه من قبل ، (فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ، وقل رب زدني علما * ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ، ولم نجد له عزما.) بدأ الآية بقوله (فتعالى الله الملك الحق) ، تذكيرا بأن الله متفرد بالإرادة الكاملة ، وأن الإرادة البشرية يجب أن تدع لإرادته ، وتنفذ ، عن استسلام ، وعن رضا ، فلا تعجل أمرا قبل أن يجي وقته ، لأن (الله لا يعجل بعجلة أحدكم) كما قال المعصوم. والإرادة البشرية ، أو (إرادة الحرية) ، قبس من الله العظيم ، وإليها الإشارة بقوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ، ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين) فكلمة (سويته) إشارة إلى (إرادة الحياة) وعبرة (ونفخت فيه من روحي) إشارة إلى (إرادة الحرية)..

معاني القرآن صور تؤدي بالكلمة

وأحب أن أنبه القارئ إلى ما سبق تقريره عن القرآن من أنه كلام الله بمعنى أنه صورة لفظية لإيجاد الله الوجود ، وخلق الخلق في الزمان والمكان ، والآيات السابقتان مثل بليغ في هذا ، فإن الإشارة إلى (الطين) تعني الخلق في طور الجمادات ، والسوائل ، والغازات ، تلك التي قلت أن الله سيرها تسييرا مباشرا ، والإشارة بكلمة (سويته) تعني الخلق في طوري النبات ، والحيوان ، بجميع صوره ، وهو ما قلنا أن الله سيره ، بإرادة الحياة ، تسييرا شبه مباشر ، والإشارة بقوله (ونفخت فيه من روحي) تعني الخلق في مرتبة الإنسان ، وهو ما قلنا أن الله سيره ، بإرادة الحرية ، تسييرا غير مباشر.. وهذه الآيات الثلاث أوضح في الدلالة على حقيقة القرآن ، استمعوا إليها (الذي أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، قليلا ما تشكرون).

وهذا الخلق ، والإيجاد ، استغرق آمادا سحيقة ، في الزمان والمكان ، وهو صورة من التطور الذي يتبع بعضه بعضا ، في حلقات متصلات ، والتسيير الذي أشرنا إلى أنه شبه مباشر في مرتبة النبات ، والحيوان ، وغير مباشر في مرتبة الإنسان ، إنما هو بالصراع بين الأحياء فيما بينها ، وبين الأحياء والبيئة الطبيعية التي وجدوا فيها. وإرادة الحرية ماذا تريد؟ تريد الحرية.. والحرية المطلقة من كل قيد ، ولكن الحرية لها ثمن ، وهو أن يتحمل الحر نتائج عمله ، وإلا أصبحت الحرية فوضى.. وأدنى مراتب الحرية المطلقة هي أن يفكر الرجل كما يريد ، وأن يقول كما يفكر ، وأن يعمل كما يقول ، بشرط ألا تتدخل حريته في حريات الآخرين.

ولما كانت الحياة مسيرة بإرادة الحياة ، قبل ظهور البشر على مسرحها ، كان قانونها اللذة ، بكل سبيل ، ثم

لما ظهر البشر ، ودخلت إرادة الحرية لتعمل عملها في التسيير ، ظهر المجتمع البشري وظهرت القيم ، التي تجعل الفرد يضحي باللذة الحاضرة ، في سبيل لذة مرتقبة ، أو يضحي باللذة الحسية ، في سبيل لذة معنوية ، وبمعنى آخر ، دخل تشريع الحلال والحرام ، أو ، إن أردت الدقة ، فقل العرف الذي يحرم أموراً ، ويحل أموراً أخرى ، في سبيل غاية بعينها..

نشأة المجتمع والقانون ونشأة الإسلام

والقصة ، في إيجاز ، هي أن الفرد البشري لما وجد نفسه أمام قوة طبيعية عنيفة ، هائلة ، لا قبل له بها ، وضح له أنه لا بد له من الالتجاء إلى جملة حيل بها يستطيع أن يحافظ على حياته ، فبنى البيوت فوق الأشجار ، وعلى قمم الجبال ، وفي الأماكن المحصنة الأخرى. واتخذ الآلة ، من الخشب ، والحجر ، وادخر طعامه ثم اهتدى إلى أكبر اختراع في الوجود ، وهو المجتمع.. ولكي يكون المجتمع ممكناً قام العرف ، الذي هو القانون الأول ، ولربما يكون أول عرف نشأ هو العرف الذي ينظم العلاقات الجنسية ، فيحرم الأخت على الأخ ، ويحرم البنت على الأب ، ويحرم الأم على الإبن ، الخ الخ.. وأعان هذا العرف على تهديئة الغيرة الجنسية ، التي كانت تفرق الأسرة البشرية كلما بلغ الأبناء فيها مبلغ الرجال. فقد أصبح ، بعد هذا العرف ، من الممكن أن يتعايش في منزل واحد ، وفي منازل متجاورة ، الأب ، والإبن البالغ ، والصهر ، والإبن المتزوج ، وكل منهم آمن على زوجته من الآخرين. ولربما يكون العرف الذي ينظم احترام الملكية الفردية قد نشأ مع هذا العرف ، من الوهلة الأولى. فإنه ، في المجتمعات البدائية ، لا فرق ، كبيراً ، بين ملكية الزوجة ، وملكية الآلة ، أو الكهف ، وإذا كان لا بد للمجتمعات الصغيرة أن تعيش في وئام ، تصيد معا ، وتحارب معا ، وتقابل صروف الأيام متحدة ، فإنه لا بد من هذين العرفين اللذين ينظمان السلوك في الجماعة ويصونان كيانها. وليس معنى هذا أن المجتمعات نشأت بصورة واحدة في كل مكان ، ولكنه ، مما لا شك فيه ، أن المجتمع البشري ، حيث نشأ ، فقد نشأ حول طائفة من العادات ، والعرف ، الذي ينظم علاقة الأفراد ببعضهم البعض ، وبهذا العرف دخلت إرادة الحرية في صراع مع إرادة الحياة ، ذلك بأن الفرد البشري قد رضي ، طوعاً أو كرهاً ، أن يتنازل للمجتمع عن قسط من حريته ليستمتع بباقيها ، بفضل حياته في مجتمع يحميه ، ويعينه. وتنازله ، عن هذا القسط من حريته ، ينظمه العرف ، وما تفرضه أوضاع مجتمعه ، وأصبح عليه أن يسيطر على نفسه ، وأن يمنعها مما يمنعها منه القانون ، الذي سنه مجتمعه. وكلما انتصر الفرد ، في هذا الصراع ، على غرائزه البدائية ، كلما قويت إرادته ، وانتقلت لذاته ، من اللذة الحسية العاجلة المحرمة ، إلى اللذة الحسية التي ينظمها العرف ، ويقرها ، بعد استيفاء قواعده ، أو قد تنتقل لذته من حسية عاجلة ، إلى معنوية عاجلة ، أو مؤجلة كرضا المجتمع عنه ، وثنائه عليه ، أو كرضا الآلهة عنه ، ومجازاتها إياه ، في هذه الحياة ، أو في الحياة المقبلة. ولما كان الفرد البشري الأول غليظ الطبع ، قاسي القلب ، حيواني النزعة ، فقد احتاج إلى عنف عنيف لترويضه ، وكذلك كان العرف الاجتماعي شديداً ، عنيفاً ، إلى الحدود التي تضحي بحياة الأفراد على مذابح معابد الجماعة ، استجلاباً لرضا الآلهة ، أو دفعا لغضبها. وهذا العنف العنيف اضطر الفرد البشري ليسيطر على نزعاته ، وليكبت في صدره كثيراً من رغائبه التي لا يقره عليها العرف ، ولا ترضاها الآلهة ، وفي نفس الوقت الذي خدم فيه العرف الأول الفرد بأن قوى إرادته ، وسيطرته على نفسه ، خدم المجتمع بأن صان حقوقه ، وجعل تماسكه ، وتضامنه ، ممكناً: ولقد سار المجتمع من تلك البداية سيرا وئيداً وسار معه الأفراد ، وكلما ترقى المجتمع ، كلما قلت التكاليف الباهظة التي يفرضها على حريات أفرادها ، بواسطة عرفه ، وقوانينه ، وأديانه ، وسنرى ذلك ، بعد قليل ، عند الحديث عن مرحلتي اليهودية والإسلام. ومنذ نشأة العرف الأول نشأ الإسلام ، وذلك لأن الفرد البشري بدأ في هذا الطور يدرك أن إرادته ليست حرة ، وإن كان هذا الإدراك يكاد يكون لا شعورياً.. ولست أريد أن أتابع مراحل الإسلام من هذه البدايات ، ولكنني سأقفز قفزة واحدة إلى مراحل الثلاث الأخيرة: اليهودية والمسيحية والإسلام ، فأحدث عنها في شيء يسير من الإطناب ، ذلك لأن هذه العجالة لا تحتل التطويل ، ولكنني ، قبل أن أنصرف إلى هذه المراحل ، أناقشها ، أحب أن أقرر هنا أن

الإسلام ، كدين ، فكرة واحدة كبيرة ، تشمل البداية والنهاية ، وقد بدأ يوم بدأ الصراع بين إرادة الحياة ، وإرادة الحرية ، وهو ما أسميه بنشأة العرف ، وهذه الفكرة لا تزال تواصل سيرها ، وستبلغ نهايتها على هذا الكوكب يوم يحقق الأفراد البشريون السلام ، كل مع نفسه ، وذلك بتسليم إرادتهم المحدثه ، إلى الإرادة القديمة . وسنعود إلى هذه العبارة في نهاية هذه العجالة. ولتقرير أن الإسلام ، كدين في عمر البشرية ، فكرة واحدة ، كبيرة ، تشمل البداية والنهاية ، يمكن أن ننظر في الإسلام في عمر الفرد البشري ، فإنه من المقرر أن حياة الفرد البشري تحكي ، بصورة عاجلة ، حياة النوع كله.. فالإسلام ، في عمر الفرد البشري ، يبدأ بالقول باللسان ، والعمل بالجوارح ، ثم يترقى حتى يصبح إذعانا واعيا ، وانقيادا راضيا ، بإرادة الله وحسن تدبيره. وأول مراتب ترقيه ، بعد الإسلام ، الإيمان ، ثم الإحسان بمراتبه الثلاث ثم الإسلام من جديد. وهذه الآيات الكريمة تفيدنا في هذا الباب (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم). فالإسلام هنا هو البداية التي هي مرحلة دون مرحلة الإيمان . ثم اسمع هذه الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) والإسلام هنا هو نهاية المطاف ، ولقد ندب إليه المؤمنون فلم يطيقوه. فلما بدا عجزهم خفف الله عنهم فنزل (فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا) فاستبدل لهم تقوى الله حق تقاته بما يطيقون ، واستبدل لهم الإسلام ، الذي هو تسليم الإرادة المحدثه إلى الإرادة القديمة: (ومن يسلم وجهه إلى الله ، وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى) استبدل لهم هذا الإسلام بالسمع للنبي ، والطاعة ، وهي مرتبة سامية ، ولا ريب ، ولكنها دون الإسلام الذي عناه الله بقوله (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين).

الإسلام بين اليهودية والنصرانية

وهذه الفكرة الإسلامية الكبيرة جاءت مرحلة اليهودية في طرف البداية منها ، وجاءت المسيحية في طرف النهاية ، وجاء الإسلام وسطا بين اليهودية والنصرانية. فإن المسيح قد قال لتلاميذه: (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس ، أو الأنبياء.. ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) ، ثم أخذ يعلمهم ، فقال: (سمعت أنه قيل عین بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا). فالمسيح ، في هذا الحديث ، يعرض علينا طرفي البداية ، والنهاية. فالعين بالعين ، والسن بالسن أقرب إلى الطبيعة البشرية المبتدئة ، وأما عدم مقاومة الشر فهو غاية في التسامح ، وهو أدخل في نهايات سير النفس المرتاضة.

ولما كان الإسلام وسطا بين اليهودية ، والنصرانية ، كما يخبرنا الله تبارك وتعالى حين يقول : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) فإن القرآن قد جاء في سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية وخصائص المسيحية ، فاسمعه يقول (وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين) ثم قارن هذا بحديث المسيح السابق تجد أن (جزاء سيئة سيئة مثلها) تعبير شامل لقول التوراة الذي حكاه المسيح (عين بعين ، وسن بسن) وتجد أيضا قوله (فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله) أبلغ في التسامح من قول المسيح (لا تقاوموا الشر) الوارد في هذا الحديث ، وإن كان للمسيح حديث آخر يرتفع إلى مستوى (فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله) وذلك حيث يقول: (أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، ويطردونكم).

الإسلام رسالتان

وكون الإسلام وسطا بين طرفين ، وجامعا لخصائص الطرفين ، من البداية والنهاية ، جعل الإسلام نفسه ذا طرفين ، طرفا أقرب إلى البداية ، وطرفا أقرب إلى النهاية. ويلاحظ هذا بوضوح ، عند قراءة الآية السابقة ، ومثيلاتها ، في القرآن ، ولهذه الظاهرة معنى بعيد الأثر ، وذلك أن الإسلام ، كما هو في القرآن ، ليس

رسالة واحدة ، وإنما هو رسالتان: رسالة في طرف البداية ، أو هي مما يلي طرف اليهودية. ورسالة في طرف النهاية أو هي مما يلي طرف المسيحية. وقد بلغ المعصوم الرسالتين معا ، بالقرآن ، وبالسيرة التي سارها بين الناس ، ولكنه فصل الرسالة الأولى في تشريعه ، وأجمل الرسالة الثانية ، اللهم إلا ما يكون من أمر التشريع المتداخل بين الأولى والثانية ، فإن ذلك يعتبر تفصيلا في حق الرسالة الثانية أيضا ، ومن ذلك ، بشكل خاص ، تشريع العبادات جميعه.. وظاهرة الرسالة الأولى أنها تبدأ بقول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، وتنتهي بقول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) فهي كالصورة الفوتغرافية الثابتة ، إلا قليلا ، وأما ظاهرة الرسالة الثانية فإنها تبدأ بقول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) وتنتهي بقول (لا إله إلا الله) المجردة ، فهي كالفلم السينمائي يتحرك من بداية إلى نهاية ، في تطور مستمر. ومعنى تجريد الشهادة معرفة مكانة الله ، من مكانة محمد. وهو تمام التوحيد ، والله تعالى يقول لنبيه الكريم: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلمهم يتفكرون).

والمأمل في هذه الآية الكريمة يدرك كيف أن الإسلام رسالتان ، فإن أول الآية: (وأنزلنا إليك الذكر) يعني الرسالتين معا ، الأولى والثانية. ووسط الآية: (لتبين للناس ما نزل إليهم) يشير إلى تفصيل الرسالة الأولى التي هي ، كما قلنا ، أقرب إلى جانب البداية ، وآخر الآية: (ولعلمهم يتفكرون) يشير إلى محاولة الارتقاء من الرسالة الأولى ، إلى مستوى الرسالة الثانية ، وذلك بإتقان العبادة التي أخطتها الله ، تبارك وتعالى ، للمسلمين ، أو قل إن أردت الدقة ، (للمؤمنين).

أمة الرسالة الأولى المؤمنون

وحيث يسمى القرآن المسلمين في مرحلة الرسالة الموسوية (يهودا) ويسمي المسلمين في مرحلة الرسالة العيسوية (نصارى) ، يسمى المسلمين في مرحلة رسالة محمد الأولى (المؤمنين) ، أو (الذين آمنوا) اسمعه: (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة ، والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم ، وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين * إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى ، من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون).

واسمعه أيضا: (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

والتفاوت بين مراحل الإسلام المختلفة: في الموسوية ، والعيسوية ، وفي رسالتي محمد ، إنما هو تفاوت مقدار ، هو ترق من بداية غليظة ، بليدة جافية ، إلى نهاية رفيعة ، ذكية ، رقيقة ، ويعكس لنا هذا الترقى التشريع المنزل بين البداية والنهاية ، فإنه ، مما لا شك فيه ، أن التشريع ، سواء كان تشريع عادة ، أو تشريع عبادة ، إنما هو منهج تربيوي ، يرتفع بالمجتمعات ، وبالأفراد ، من الغلظة ، والجفوة ، إلى اللطف ، والإنسانية ، وكلما كان الناس غلاظ الأكباد ، بليدي الحس ، كلما شدد عليهم في التشريع وكبلوا بالقيود والأثقال ولو أن الناس رعوا ما عليهم ، حق رعايته ، لما أعتنوا في أمر من أمورهم. والله تعالى يقول: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم ، وأمنتم؟ وكان الله شاكرا عليما) لكن حاجة الناس إلى الترويض هي التي حرمت المحرمات ، وعزمت العزائم ، وجاءت المحرمات ، والعزائم ، وفق الحاجة إليها . فحين كان الإسلام في طور اليهودية ، وحين كان الناس غلاظا ، جفاة ، قال الله تعالى عنهم: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما).

وقال عنهم: (وإذ قال موسى لقومه يا قومي إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم).

الناس مخفف عليهم كلما عقلوا

وحين بلغ الإسلام طور رسالة محمد الأولى قال تعالى: (قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به. فمن اضطر ، غير باغ ولا عاد ، فإن ربك غفور رحيم).

وقال تعالى: (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما).

فقد رد المحرمات على الأمة المحمدية ، إلى أربعة ، كلها خبيث ، ثم تجاوز ، حتى عن هذه الأربعة للمضطر ، إذا لم يكن باغيا ، ولا عاديا ، في حين أنه شدد على اليهود ، حتى في الطيبات. وقال للأمة المحمدية: (ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما). في حين أنه قال تعالى لليهود: (فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم). والمقصود ، بالطبع ، القتل الحسي.

الحرمة الحسية مجاز لتنقية السلوك

ثم يطرد هذا التفاوت ، بين التشديد والتضييق في القاعدة ، والترخيص والتوسيع في القمة ، حين يبلغ الإسلام بالناس طور رسالة محمد الثانية ، وهي قمة الإسلام ، ونهاية المطاف ، تقريبا ، فينتقل التحريم ، من الأعيان المحسوسة ، إلى صور السلوك المعنوية. فاسمع القرآن الكريم يقول (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا ، واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ، ما ظهر منها ، وما بطن ، والإثم ، والبغي بغير الحق ، وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). ويقول: (وذروا ظاهر الإثم ، وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون). فإذا المحرم حقا ، وفي آخر الأمر ، هو عيب السلوك ، ونقص الأخلاق ، وإنما حرم المحسوس كوسيلة إلى تحريم عيوب السلوك المعنوية ، وذلك على القاعدة الحكيمة في التربية ، والتعليم التي تطالعنا بها الآية الكريمة: (سنريهم آياتنا ، في الأفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد؟).

ولقد سبق القول بأن رسالة محمد الثانية تجئ أقرب إلى جانب النهاية ، منها إلى جانب البداية ، أو هي مما يلي النصرانية. والآيات الكثيرة التي تعنى بعيوب السلوك والتي أوردت لكم منها نموذجا هنا ، أدخل في رسالة محمد الثانية ، منها في رسالته الأولى ، وتذكرنا بآيات من أقوال المسيح . فقد قال في الإصحاح الخامس ، من إنجيل متى ما يلي : (قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه). وقال أيضا لتلاميذه: (اسمعوا ، وافهموا ، ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من الفم ، هذا ينجس الإنسان). يشير إلى أن النجاسة الحسية ، من التبول ، والتغوط ، لا تنجس الإنسان ، وإنما تنجسه أخطاء اللسان. (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) كما يقول القرآن ، في الآية الماضية. أو (إذ تلقونه بالسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم .) كما يقول القرآن أيضا في موضع آخر. وعندما ينسحب التحريم من الصور الحسية الغليظة ، إلى الصور المعنوية الدقيقة ، في عيوب السلوك والسيرة ، يواصل هذا الانسحاب حتى يصل خفايا السريرة ، وما يحوك فيها من خواطر الإثم ، كما تحدثنا الآية الكريمة ، التي سبقت الإشارة إليها: (وذروا ظاهر الإثم وباطنه). ومع أن ترك ظاهر الإثم جاء بمكان الوسيلة ، والغاية منه ترك باطن الإثم ، إلا أن رسالة محمد الأولى قد تجاوزت عن باطن الإثم لأنه لم يكن الوقت يومئذ ناضجا لتحريمه ، وفي حديث نبوي شريف أن النبي قال: (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفوسهم ، حتى يقولوا ، أو يعملوا). أو كما قال.

لكل معنى شكل هرمي

وليس هناك شك في أن لكل معنى حسا ، أو بتعبير آخر ، فإن للمعاني شكلا هرميا ، له قاعدة ، وقمة ، وكلما دق المعنى ، دق الحس ، أو قل كلما دق الشكل الهرمي دقت قاعدته ، تبعا لذلك . وعلى نفس هذا الاعتبار لكل سريرة ، سيرة ، وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة ، لأن الخطيئة إنما تبدأ في السريرة ، أولا ، أو قل في الفكر ، ثم تخرج إلى السيرة ثانيا ، أو قل إلى صور السلوك المحسوسة ، بين الناس.

أسلوب القرآن في التربية فريد

وأسلوب القرآن في شفاء الناس من الخطيئة أسلوب عكسي يبدأ من الخارج ، ويسير إلى الداخل ، (سنريهم آياتنا ، في الأفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق) وهو أسلوب غاية الغايات في الدقة ، والحكمة ، ويفضي بالذين يتقنونه إلى الأسلوب الصحيح ، وهو الأسلوب الطردي ، الذي يبدأ من الداخل ، ويسير إلى الخارج . وإلى هذا الإشارة اللطيفة ، في الآية السابقة ، حين قال ، جل من قائل ، (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟) وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة ، فضاقت دائرة المحرمات ، لذلك ، واتسعت دائرة المباحات ، على قاعدة الآية الكريمة: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وكان الله شاكرا عليمًا) فإذا استمر السير بالسائر إلى نهايته المرجوة ، وهي نقاء السريرة ، واستقامة السيرة ، تماما ، عادت جميع المحسوسات إلى أصلها من الحل وانطبقت الآية الكريمة: (ليس على الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا ، وآمنوا ، وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين) وهذه مرتبة من الكمال تؤدي إليها رسالة محمد الثانية ، حين قصرت عنها رسالته الأولى .

أمة الرسالة الثانية المسلمون

ولقد طال الحديث عن رسالتي محمد ، وقلنا أنه بلغهما جميعا في معنى ما بلغ القرآن ، وسار السيرة ، ولكنه أجمل الثانية إجمالا ، وفصل الأولى ، تفصيلا ، وأوردنا الآية الكريمة في ذلك: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون) وقلنا أن الرسالتين مشتملتان ، ومبلغتان في: (وأنزلنا إليك الذكر) ، ولكن الرسالة الأولى ورد الأمر بتفصيلها في (لتبين للناس ما نزل إليهم) فمما (أنزل) وهو أدخل في الرسالة الثانية ، قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون؟ قل العفو!!) وعليها ، وعلى غيرها ، انبنى الندب إلى الصدقة في الرسالة الأولى ، ومما (نزل) ، وهو أدخل في الرسالة الأولى (خذ من أموالهم صدقة ، تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) وعليها انبنى تشريع الزكاة فيها ، ومما (أنزل) وهو أدخل في الرسالة الثانية ، قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وتلك مرتبة المسلمين ، فلما لم يطبقوها (نزل) عليهم: (فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، وأطيعوا ، وأنفقوا ، خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وهي أدخل في الرسالة الأولى ، وتلك مرتبة المؤمنين كما سبق بذلك القول ، وهناك آيات كثيرة يمكن إيرادها ، فمما (أنزل) مثلا ، قوله تعالى: (لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي) ومما (نزل) قوله تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم).

وأحب أن أنبه القارئ ، دائما ، إلى الفرق بين كلمتي (أنزل) و(نزل) اللتين استعملتهما كثيرا أخذا من الآية الكريمة (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون).

إرهاص الرسالة الثانية

وأنت حين تقرأ قول الله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب ، بغتة ، وأنتم لا تشعرون) تعلم أنه أمر دقيق ، وجليل ، ولكن ، اعلم ، أيضا ، أن حكمة الله أرجأته تخفيفا على الذين آمنوا ، حتى يجئ اليوم الذي تفصل فيه الرسالة الثانية ويصبح المسرح معدا ليحقق الذين آمنوا الإسلام ، بأن يتقوا الله ، (حق تقاته) وبأن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من الله. وستقول وماذا تعني بإعداد المسرح؟؟ وأقول إقامة المجتمع الصالح ، ونظام الحكم الصالح ، الذي يجعل مجاهدة الفرد في سبيل اتباع أحسن ما أنزل مجاهدة ميسرة الأسباب .

ولقد وردت الإشارة ، مرات عديدة ، إلى القول بأن رسالة محمد الثانية ستجئ أقرب إلى جانب النهاية ، منها إلى جانب البداية ، أو هي مما يلي النصرانية ، والحق أن الشبه النظري بين وصايا المسيح ، ووصايا القرآن ، في الرسالة الثانية ، كبير ولكن الفرق العملي أكبر ، فإن المسيح حين أوصى بتلك الوصايا الرفيعة ، لم يقم نظاما اجتماعيا ، ولا نظاما حكوميا ، يجعل تحقيق تلك الوصايا أمرا ميسورا للأفراد ، وأما الإسلام فإنه ، حتى برسائله الأولى ، قد أقام نظاما اجتماعيا ، ونظاما حكوميا فيهما من التكافل ، والإسماع ، ما يجعل الفرد يستشرف ، استشرافا عمليا ، لتحقيق بعض وصايا القرآن الرفيعة ، ونحن الآن نستقبل عهدا جديدا فيه نريد لأفراد مجتمعنا أن يحققوا كل وصايا القرآن ولذلك نسعى لإقامة نظام اجتماعي ونظام حكومي ، أرقى مما كان لدينا في عهد الرسالة الأولى ، وهذا هو ما عني بإعداد المسرح الذي وردت الإشارة إليه آنفا.

الرسالة الثانية

المساواة الاقتصادية

لقد آن الأوان لتفصيل الرسالة الثانية ، وذلك بالنظر في تكميل تشريع الرسالة الأولى ، بتطويره ليحقق قسطاً أكبر من الهدف الديني ، والعمدة في التطوير أمران ، حاجة المجتمع الحاضر ، وروح الإسلام ، كما كان يعيشها المعصوم. فأما روح الإسلام ، كما كان يعيشها المعصوم ، فهي الحرية الفردية المطلقة ، وأما حاجة المجتمع الحاضر فهي العدالة الاجتماعية الشاملة ، ولا تتم العدالة الاجتماعية الشاملة إلا إذا قامت على ثلاث مساويات: المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية ، والمساواة الاجتماعية ، فأما المساواة الاقتصادية ، فهي أن يكون هناك حد أعلى لدخول الأفراد ، وحد أدنى ، على أن يكون الحد الأدنى مكفولاً لجميع المواطنين ، بما في ذلك الأطفال ، والعاجز ، والعاجزين عن الإنتاج ، وأن يكون كافياً ليعيش المواطن في مستواه معيشة تحفظ عليه كرامته البشرية ، وألا يكون الفرق بين الحد الأدنى ، والحد الأعلى ، أكبر من سبعة الأضعاف ، حتى لا يكون هناك تفاوت طبقي ، يجعل الطبقة العليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة السفلى ، وتحقق المساواة الاقتصادية بالاشتراكية ، وهي عبارة عن زيادة الإنتاج ، باستخدام الآلة ، وتجويد الخبرة الإدارية ، والفنية ، ثم عدالة توزيع هذا الإنتاج ، على الأسس التي سبق ذكرها ، ولا تقوم الاشتراكية إلا على تحديد الملكية الفردية بما لا يتعدى إلى وسائل الإنتاج. فللمواطن أن يملك المنزل ، والحديقة حوله ، والأثاث داخله ، والسيارة وما إلى ذلك ، مما لا يتعدى إلى ملكية الأرض ، أو المصنع ، أو أي من وسائل الإنتاج ، وحتى في هذه الحدود الضيقة ، تكون الملكية ملكية ارتفاق لا ملكية عين. وهذا يعني أن ينتقل التشريع من آية الزكاة الصغرى (خذ من أموالهم صدقة ، تطهرهم ، وتزكهم بها ، وصل عليهم) إلى آية الزكاة الكبرى (يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو!!) و (العفو) كل ما زاد عن حاجتك الحاضرة ، من غير ادخار ، ولا كنز ، وهذا ما كان يفعله المعصوم ، وهو روح الإسلام ، ويجب أن يكون مفهوماً ، فإن الملكية الفردية تحدد بما حددناها به ، لتكون الملكية للجماعة ، لا للدولة ، وفي ذلك احتراز من نشوء الحكومة المركزية ، القوية ، ذات الإدارة المتشعبة ، الكبيرة المتغولة ، التي تقوت على الناس فرص المساواة السياسية في سبيل المساواة الاقتصادية. فالملكية للجماعة ، تدار بأساليب التعاون ، يقوم فيها الناس بخدمة أنفسهم ، لا ينتظرون من الدولة إلا التدريب المهني والإداري ، والمشورة الفنية ، والإشراف العام المنسق للتعاون بين أجزاء القطر المختلفة ، وكل أمر يستطيع الناس أدائه بدون توسط الدولة يترك لهم أدائه ، ويتبع المساواة الاقتصادية المساواة في جميع الفرص وجميع الحقوق.

المساواة السياسية والمساواة الاجتماعية

وأما المساواة السياسية فأن يكون لكل مواطن ، ومواطنة ، فوق سن العشرين مثلاً ، حق اختيار من يقومون بإدارة حكومتهم المحلية ، والمركزية ووسائلهم الإنتاجية ، على نحو متساو. فإذا ما تمت المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية فإن المساواة الاجتماعية تصبح كالنتيجة ، التي تتبع المقدمة. اللهم إلا مسائل يسيرة تتوقف على الرأي العام في المجتمع ، وحتى هذا فإن المقدمات التي تنتج عن المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية ، تجعله يتبع ، بعد حين ، بطول ، أو يقصر ، ولكنه يأتي ، على التحقيق ، وسيكون من واجب الدولة توجيه التطور وحفره ، وذلك بالتعليم ، والتنقيف حتى يكتسب الرأي العام حرية ، وإسماعاً ، يجعلانه لا يضيق بأنماط السلوك المختلفة ، ما دامت هذه الأنماط تتسامى إلى الرفعة والتجويد.

العبادة في الرسالة الثانية ألزم منها في الرسالة الأولى

والدولة ، بالتعليم المهني ، والفني ، والديني ، وبالتثقيف العام والحريات العامة ، تعيين الأفراد إعانة كبيرة ، ولكن هناك حدا يبدأ فيه الأفراد مجهودهم الفردي في التربية ، والإسلام يقدم المنهاج التعبدية المنقول عن المعصوم ، وهو أكمل منهاج تعبدية عرفته البشرية ، وهو في الرسالة الثانية ألزم منه في الرسالة الأولى ، وذلك لأن العقل البشري المعاصر أكثر تطلعا إلى الحرية منه في أي وقت سلف ، ولأن الحرية ما إليها من سبيل إلا عن طريق تقليد المعصوم ، في منهاج عبادته ، وكل ما هناك من فرق بين الموقفين: موقف العبادة في الرسالة الأولى ، وموقفها في الرسالة الثانية ، أن الأفراد البالغين ، الرشدين ، لا يحملون عليها بالقسر والإكراه وإنما يحملون عليها بالقوة والإقناع ، (لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي) والسبب في ذلك أنه ، في الرسالة الثانية ، كل شئ وسيلة إلى إنجاب الفرد الحر ، حرية مطلقة - المجتمع ، والإسلام والقرآن - والعبادات من باب أولى. فإذا ما قهرنا الفرد ، وحملناه على العبادة بالقسر ، والإكراه نكون قد جعلنا الوسيلة تهزم الغاية منها ، وهو وضع معكوس بطبيعة الحال.

التلقي بين الرسالتين

إن كل فرد يبدأ بالإسلام الذي هو مجرد الشهادة باللسان ، والعمل بالجوارح في تقليد النبي ، ثم يتمكن التصديق من قلبه ، بتوكيد العمل ، فيصير مؤمنا ، ثم يزيد الإيمان ، فيدخل في طرف الإحسان ، الغليظ ، ثم يتلقى في مراحل الإحسان. وقد سئل المعصوم عن الإحسان فقال (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فهذه ثلاث مراحل. المرحلة الأولى مما يلي الإيمان وهي أن يؤمن السائر بأن الله يراه ، وهو ما عبر عنه النبي (فإنه يراك) والمرحلة الثانية تأتي بعد ذلك ، حين يقوى الإيمان بالمرحلة الأولى ، وهي أن يبدأ يقين السائر بأنه يرى الله ، وهو ما عبر عنه النبي (كأنك تراه) ثم المرحلة الأخيرة ، وهي أن يرى السائر الله وهو ما أشار إليه النبي بقوله (فإن لم تكن تراه) ولذلك قال بعض العارفين (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن ، فإنك تراه) يشير بذلك إلى أن الإنسان محجوب بأوهام نفسه ، عن الله فإن فني عنها ، فإنه يرى الله. ورؤية الله هي مرتبة الإحسان التي هي قمة الإسلام ، وإليها الإشارة في قوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين) وإليها الإشارة أيضا بقوله تعالى (ليس على الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا ، وآمنوا ، وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين) فإذا بلغ السائر مرتبة الإحسان هذه ، فقد أصبح مسلما في المستوى المقصود بقوله تعالى: (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ؟ واتخذ الله إبراهيم خليلاً) .

وبقوله تعالى: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى) فإن جميع المخلوقات مسلمة وجهها إلى الله ، ولكنها غير محسنة ، أي غير عالمة بذلك . والقرآن يحثنا باستسلام جميع المخلوقات ، فيقول: (ولله يسجد من في السموات ، والأرض ، طوعا وكرها ، وظلالهم بالغدو والآصال). ويقول: (إني توكلت على الله ، ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على سراط مستقيم) ويقول (وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

الإسلام علم وعمل بمقتضى العلم: وإلا فلا

وفي الإسلام العلم معناه العمل وأي علم لا يستتبع العمل فهو علم ناقص ، ولذلك فإن مرتبة الإحسان مرتبة تقتضي الاستسلام ، الراضي ، بإرادة الله ، الهادية ، ومعنى ذلك في الحياة اليومية أن الإنسان يعمل الواجب المباشر ، جهد الإتيان ، والإحسان ، فإن جاءت النتيجة وفق ما يريد فذاك ، والله الحمد ، وإن جاءت النتيجة على خلاف ما يريد ، جعل إرادته تابعة لإرادة الله وحده ، ورضي بإرادته ، ثقة به ، وإيثارا له ، فإن لم يقدر على الرضا ، ففي الصبر خير كثير ، وليس وراء الصبر إلا السخط ، وكل ساخط معذب . ويحضرني

، في هذا ، حديث قدسي طريف ، فإنه قيل أن الله ، تبارك ، وتعالى ، قال لداود (يا داود! إنك تريد ، وأريد ، وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد ، كفيئك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد ، أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد).

فالصبر على إرادة الله مرتبة من الإحسان في طرف البداية ، والرضى بإرادة الله مرتبة من الإحسان رفيعة. قال تعالى لنبيه الكريم : (فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، وأطراف النهار ، لعلك ترضى). فهو يأمره بالصبر على الإرادة الإلهية حين تجري بما لا يريد ، ويهديه إلى الحمد ، ويرشده إلى الاستعانة على الصبر والحمد بالصلاة ، ويمنيه الرضا ، (لعلك ترضى) ، برضا الله عنك ، ومن رضي الله عنه غمره بالأطاف ، وأغدق عليه الفيوضات ، وجعله مستغرقا في لحظته التي هو فيها ، غير مشغول بالمستقبل بالتمني ، ولا بالماضي بالأسف. ومن كان كذلك فهو الحر ، المطلق الحرية.

التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة

قلنا ، عند الحديث عن نشأة المجتمع البشري ، وفي نفس الوقت الذي خدم فيه العرف الأول الفرد ، بأن قوى إرادته وسيطرته على نفسه ، خدم المجتمع بأن صان حقوقه وجعل تماسكه وتضامنه ممكناً ، فكأن المجتمع البسيط ، في حدوده البسيطة ، قد وفق بين حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة. ومنذ ذلك اليوم ، وإلى يوم الناس هذا ، لم يستقم ميزان التوفيق بين هاتين الحاجتين ، في أي فلسفة اجتماعية معاصرة ، أو سالفه، ولكن الإسلام ، في أعلى مستويات المجتمع المعقدة ، يقدم صورة متقنة من هذا التوفيق الدقيق.

أسلفنا القول بأن حاجة الفرد البشري هي الحرية ، الفردية ، المطلقة. ونقرر الآن أن حاجة المجتمع هي أن يصبح أداة ، صالحة لتحقيق الفرد الحر ، حرية مطلقة ، ذلك بأن المجتمع وسيلة إلى هذا الفرد ، وكل ما يمكن الوسيلة من تحقيق غايتها فهو من حاجتها وقد خططنا المجتمع المقبل قبل قليل في هذه العجالة ونتحدث الآن عن الفرد الحر حرية فردية مطلقة.

الفرد الحر حرية فردية مطلقة

وليس هناك أدنى شك أنه ، بعد كل ما يقال عن المجتمع ، ومساعدته للفرد ، فإن الفرد ، في آخر المطاف ، لا يمكن أن يتحرر إلا بمجهوده الفردي ، ذلك بأنك يمكنك أن تؤمن حياة الفرد من الخوف ، ومن الفقر ، ومن الجهل ، ومن المرض ، وستبقى بعد كل هذا العقد النفسية الموروثة والمكتسبة - العقد الموروثة منذ فجر الحياة الإنسانية ، حين بدأ المجتمع ، وأوجبت على الأفراد الواجبات - وهي عقد لا حد لها ، وإن كانت حدثها تقل كلما ارتقى المجتمع وقلت ، تبعا لرقية ، العقد المكتسبة في حياة الفرد البشري .. فإن هذه العقد النفسية ، بنوعها هي غول الحرية ، لأنها قسمت الشخصية البشرية إلى ظاهر ، يُرضي مقاييس المجتمع ، وإلى باطن ، لو اطلعوا عليه الناس لتقاطعوا ، وتدابروا.. فهذه القسمة المنكرة، في الشخصية البشرية ، هي التي تحتاج إلى المجهود الفردي لتلتئم ، وتكون بالنتامها كلا واحدا ، متكاملا، فإنه ، كما قال المسيح ، (البيت المنقسم لا يقوم).

وقد سلف القول بأن القرآن ، والعبادات المأثورة عن المعصوم ، هي وسيلة تنفيس هذه العقد ، فإن تقليد النبي في أسلوب حياته ، تقليداً متقناً ، يفتح مغاليق القرآن. وفهم القرآن يرسل النور في سراديب العقل الباطن ، حيث تكبل الرغائب السجينة من ملايين السنين ، بعيدة عن النور ، والحرارة ، والحياة ، وكلما تغلغل النور في تلك السراديب ، كلما انبعثت الشخصية البشرية ، حرة ، طليقة ، كأنما نشطت من عقال. ويجب أن يكون مفهوما ، أن تقليدنا محمدا ليس نهاية القوة الخلاقة ، المودعة فينا ، وإنما تقليدنا إياه ، تقليدا متقنا ، وسيلتنا للتحرر عن التقليد ، لأن عبادتنا إن هي إلا وسيلة لتحقيق فرديتنا ، التي لا يشابهنا فيها أي

فرد ، من أفراد القطيع البشري ، والتقليد ، في أرفع صورته ، وعلى خير ما يكون ، إنما هو إنكار للفردية. ولا تحقق الفردية بإنكارها ، بالطبع.. فكما أن الكبت ، في أول أطوار النشوء البشري ، وسيلة إلى التحرر من الكبت ، في أعلى مراقي هذا النشوء ، فكذلك التقليد ، في أول طريق السالك المجود ، وسيلة إلى التحرر عن التقليد ، عند الاستواء.

وكل سالك طريق الحرية يبدأ بالإسلام ، ثم يرتفع إلى الإيمان ، ثم يرقى في مراقي الإحسان المختلفة ، كما بينا ذلك قبل حين ، حتى ينتهي إلى الإسلام ، مرة ثانية.. والقرآن يخاطبه ، في كل مقام من مقامات سيره ، خطابا فرديا ، فمثلا عندما يقرأ السالك المجود قوله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، رب العالمين) يفهم منها ، في أول الطريق ، أن له مشيئة مستقلة بالاستقامة ، أو الالتواء ، فيجتهد في الاستقامة ، في تشمير ، وجد ، فإذا نضجت تجربته ، واستوى ، يعلم ، يقينا ، أنه لا يملك ، مع الله ، مشيئة ، ويصبح الخطاب في حقه (وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، رب العالمين) مع فهم أكيد للحكمة في قوله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم) وتصبح هذه القولة ، في حقه ، منسوخة بالقولة الثانية..

الصلاة الشرعية

والخطاب بالصلاة وارد هكذا في القرآن: (اتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنتهي عن الفحشاء ، والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون). و (ذكر الله) القرآن ، وقد قلنا أن الصلاة وسيلة إلى فتح مغاليقه ، ولذلك قال (ولذكر الله أكبر).. وكل العلم موجود في قوله تعالى في آخر الآية (والله يعلم ما تصنعون) ، وهي إشارة إلى تمام التسيير الذي باستيقانه يتم الإسلام.. وقال تعالى مخاطبا المؤمنين: (فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون * يأيتها الذين آمنوا استعينوا بالصبر ، والصلاة إن الله مع الصابرين) (استعينوا بالصبر ، والصلاة) يستعينون على ماذا؟ على الرضا بإرادة الله، كما سبق القول عن الآية (فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، وأطراف النهار ، لعلك ترضى).

وقال تعالى ، مخاطبا المؤمنين (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) ومعنى (موقوتا) هنا ، أنها، على المؤمنين فرض له أوقات يؤدي فيها ، فإذا ارتفعوا بها ، وبالعبادات ، والأعمال جميعا ، وبالقرآن ، عن مرتبة الإيمان ، إلى مرتبة الإحسان ، حيث يرون الله ، تبارك ، وتعالى ، فقد أصبحوا أكثر من مؤمنين - أصبحوا مسلمين - وأصبح عليهم أن يقلدوا الله ، لا أن يقلدوا محمدا ، كما قال المعصوم (تخلقوا بأخلاق الله ، إن ربي على سراط مستقيم) وأصبح معنى (كتابا موقوتا) في هذه الحالة، أنها فرض له وقت ينتهي فيه. ويجب أن يلاحظ أن انتهاءها لا يكون تشريعا عاما ، لأن تلك مرتبة فردية، لا مرتبة عموم. ولربَّ قائل يقول ، ولماذا لم تنته الصلاة بمحمد؟؟ والجواب هو أن محمدا ليس مقلدا وإنما هو أصيل ، وكل من عداه مقلد له. وهو في أصلاته يستطيع أن يحقق فرديته بأسلوب الصلاة ، كما يطلب من كل منا أن يحقق فرديته بطريقة خاص ينفذ له لسياسة حياته ، وفق الحق والصدق. ولقد أشار القرآن إلى تحقيق النبي الكريم لفرديته بقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وهذا المقام المحمود هو الذي قامه يوم عرج به ، وانتهى إلى سدره المنتهى ، حيث قال الله فيه (ما زاغ البصر وما طغى). (ما زاغ البصر) أي ما ارتد خاطر إلى الماضي ، (وما طغى) أي ما امتد إلى المستقبل ، ينشغل به ، وإنما استغرقت اللحظة الحاضرة ، بالشهود ، والرؤية فكأنه كان وحدة ذاتية ، في وحدة مكانية ، في وحدة زمانية. ولقد فرضت عليه الصلاة في ذلك المقام ، ولما عاد إلى طبيعته البشرية أصبحت الصلاة معراجا يوميا له ولأمته ، إلى ذلك المقام الرفيع الذي قامه بين يدي الله ، تبارك ، وتعالى ، ولما كان هذا المقام هو مقام تحقيق الفردية ، أو قل ، مقام وحدة الذات البشرية ، وهذا المقام مطلوب من كل مسلم أن يسعى إليه ، فقد أصبحت الأصالة والتحرر من التقليد ، في أخريات السير إليه ، أمرا لا مناص منه ..

وحدة الوجود

قلنا ، في صدر هذا السفر ، أنا نريد أن نرى ، هل يستطيع العلم التجريبي الروحي أن يرد ظواهر الأخلاق البشرية إلى أصل واحد ، كما رد العلم التجريبي المادي ظواهر الكون المادي إلى أصل واحد ، فيتم بذلك الاتساق ، والتلاؤم ، بين الأخلاق البشرية ، والسلوك البشري ، وبين البيئة المادية التي يعيشون فيها ، وينتهي بهذا التلاؤم ، هذا النشور الذي بدد المساعي البشرية أيدي سباً ، وقطع أرحام الإنسانية بين الناس؟ ولعله قد اتضح ، شيئاً ما ، أن الإسلام يقوم ، من الوهلة الأولى ، على تسليم الإرادة البشرية المحدثه إلى الإرادة الإلهية القديمة (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى). وتجربتي الخاصة لم تدع لي مجالاً للشك في صحة هذا الأمر ، ومن ثم فإنه عندي أن جميع ظواهر السلوك البشري ، من خير وشر ، يرجع إلى أصل واحد هو (إرادة الله القدير). وفي الحق ، ليس الشر أصلاً ، وإنما الأصل الخير ، وما الشر إلا نتيجة جهلنا الذي أوهمنا أننا نستقل بإرادة ، فإذا ارتفع هذا الجهل بالتجربة الروحية ، فسيصبح عملنا تجويد الواجب المباشر ، والانشغال بإحسانه ، وتجويده ، عن التَمَنّي ، والتأسف ، وبذلك نحقق السلام ، كل مع نفسه ، ومن ثم يتحقق في الأرض السلام..

استمع إلى القرآن ، كيف يحدثنا ، ويهدينا إلى السلوك البشري الرصين: (ما أصاب من مصيبة ، في الأرض ، ولا في أنفسكم ، إلا في كتاب ، من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين ييخولون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول ، فإن الله هو الغني الحميد).

حسن الخلق حسن التصرف في الحرية

وما هي الأخلاق؟؟ هي ، في سبحاتها العليا ، حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة! ولذلك قال المعصوم: (حسن الخلق خلق الله الأعظم) ومن حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة تركك ما لا يعنيك ومما لا يعنيك اللحظة المقبلة ، واللحظة الماضية ، ولا يعنيك إلا اللحظة الحاضرة ، فإذا ملأتها بالعمل المثمر المتقن ، ثم سرت بحياتك جميعها مشغلاً ، فقط ، بالواجب المباشر ، محسناً له ، جهد طاقتك ، فإنك تحرز وحدة شخصيتك ، وتنتصر على الخوف ، والقلق ، وتحقق ، مع نفسك ، السلام. وتكون حياتك بركة عليك ، وعلى الإنسانية جميعاً ، من حيث تشعر أنت ، أو لا تشعر.. فإن كل حياة سليمة ، خصبة ، تخصب الحياة جميعها ، بمجرد وجودها فيها ..

خاتمة

أما بعد ، فقد يرى أناس أن هذا الحديث غريب. فلا يجعلوا أنفسهم ، ولا يصدروا الأحكام ، و ، قبل أن يتهموا أنفسهم ، يبادروا بآتهام الآخرين. فإن هذا الحديث حق ، عندي ، وصدق ، وإنني لأرجو الله له ، أن يكون حقاً ، عنده ، وصدقاً.. وما ذلك على الله بعزيز.